مجلة التدوين | ISSN: 2170-0419 EISSN: 2602-6953 | المجلد 16 / العدد: 01(2024)، ص 150- 165

أزمة الخطاب الفقهي الديني المعاصر في ظل الحداثة

The crisis of the contemporary religious jurisprudential discourse in the light of modernity

بلخضر نوال

جامعة تيارت (الجزائر)، ninawel9@gmail.com

تاريخ الاستلام:2021/10/23 تاريخ القبول: 2024/05/31 تاريخ النشر: 2024/07/31

ملخص: في كل أزمة تمر، يبرز الخطاب الفقهي الديني المعاصر كجزء من الأزمة وليس جزءا من الحل، وهذه ظاهرة متكررة وملموسة، تهدف هذه الدراسة إلى تناول كيف أصبح الناس يتنبؤون ويتوقعون ما يمكن أن تكون عليه الفتاوى والبيانات الشرعية قبل صدورها، وهذا نهج المؤسسات الشرعية الرسمية، والمشايخ الذين يتمتعون بعلاقات طيبة مع الدولة أيا كانت هذه الدولة، فتقديرهم للموقف يأتي في الحقيقة تقليدا لموقف الدولة، ثم يقتصر دورهم على توظيف الآيات والأحاديث في هذا الاتجاه، والشيخ قد يكون صادقا مع نفسه وليس منافقا ولا مطبلا، فهو إما واثق حقيقة بما يسمعه من الإعلام الرسمي، وإما أن يكون قاصدا لتعزيز هذه الثقة والتغاضي عن بعض السلبيات دفعا للفتنة وللمفسدة الأكبر، وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها هذا التوجه الذي سيؤدي بطبيعته إلى انقسام الفتاوى والخطابات الدينية بحسب انقسام الدول، إضافة إلى ضعف الثقة بهذا الخطاب، خاصة إذا انكشفت الأمور وظهرت النتائج والعواقب المريرة.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الخطاب، الدين، الأزمة، الفقه.

Abstract: In every crisis that passes, the contemporary religious jurisprudential discourse emerges as part of the crisis and not part of the solution, and this is a recurring and tangible phenomenon, so that people have come to predict and expect what legal fatwas and statements might be like before they are issued, and this is the approach of official legitimate institutions, and sheikhs who enjoy good relations With the state, whatever this state is, their appreciation of the situation is in fact an imitation of the state's position, then their role is limited to employing verses and hadiths in this direction, and the sheikh may be honest with himself and is not a hypocrite or a fool, he is either really confident in what he hears from the official media, or It is intended to enhance this confidence and to overlook some of the negatives in order to drive sedition and the greater corruption, but this trend by its nature will lead at least to the division of fatwas and religious discourses according to the division of countries, in addition to the weakness of confidence in this discourse, especially if matters are revealed and bitter results and consequences emerge.

Keywords: discourse, religion, crisis, truth

1. مقدمة:

يعاني الخطاب الفقهي الديني المعاصر، من تمثلات القراءة الحرفية الظاهرية المتشددة للنصوص الدينية التأسيسية، وهي قراءة تجثم على وجه أحادي لفهم الإسلام، وتعتبره فهما نهائيا ومغلقا ومطابقا لمراد الشارع، ومن ثم تعد من الواجب الالتزام به لأنه عين الالتزام بالدين، وكل خروج عنه هو يعد خروج عن الدين وانسلاخ عن ملة الإسلام، وهذا الاعتقاد مازال يكبل الخطاب الديني المعاصر، يستعيد أسئلة وإشكالات وأجوبة من سياقات علمية واجتماعية وتاريخية وسياسية لا صلة لها اليوم بالواقع، ويحاول من خلالها قراءة حاضر مغاير له ملامح اختلافه التام والكامل عن مختلف تلك الأسئلة والإشكالات والأجوبة، إنه يعطل التفكير، ويستعير أصواتا من زمن مضى وانقضى لتفكر عوضا عنا في قضايا تندرج تاريخيا وفكريا، ضمن دائرة اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه بالنسبة إلى تلك الأصوات؛ لا لتقصير ذاتي منها، بل لأن النظام المعرفي العام المهيمن والمسيطر على سياقها التاريخي والمعرفي والحضاري لم يكن يسعف على طرح مثل هذه القضايا،وهذا الأخير طرح مجموعة من التساؤلات من أهما:

- ما هي أسباب أزمة الحداثة وافتقارها للشرعية، وما هي طبيعة المشاكل التي تعانيها الخطابات الفقهية الدينية؟
- وما هي الإشكاليات الأساسية في الخطاب الديني التي تولدت عنها أزمة الحداثة العربية ؟ ما هي الشروط اللازمة لتجاوز ذلك؟

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الخطاب الفقهي الديني المعاصر كجزء من الأزمة وليس جزءا من الحل، وهذه ظاهرة متكررة وملموسة، تهدف إلى تناول كيف أصبح الناس يتنبؤون ويتوقعون ما يمكن أن تكون عليه الفتاوى والبيانات الشرعية قبل صدورها، وهذا نهج المؤسسات الشرعية الرسمية، والمشايخ الذين يتمتعون بعلاقات طيبة مع الدولة أيا كانت هذه الدولة، فتقديرهم للموقف يأتي في الحقيقة تقليدا لموقف الدولة، ثم يقتصر دورهم على توظيف الآيات والأحاديث في هذا الاتجاه، أما المنهج فقد استعنا بالمنهج التحليلي، لتحليل أزمة الخطاب الفقهي المعاصر ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة.

1- 2. الخطاب الديني الحداثي وضرورة التحرير من الأزمة:

لم يعد يتلقى صورة واحدة للدين، بل هناك صور مختلفة تصل إلى حد التناقض تبعا لثقافة الشيخ وموقعه الرسمي وانتمائه الحزبي أو المذهبي، وربما تبعا لمزاجه أيضا وحالته النفسية، وإن الخطيب أو الواعظ كثيرا ما يتعامل مع النصوص بطريقة معكوسة، فهو يتبنى الرأي أولا ثم يعود إلى النصوص، ليبحث فيها عما يؤيد فكرته، ولذلك هو لا يقرأ القراءة البحثية الشاملة، بل هو يميل إلى ما يسمى بالقراءة الانتقائية، والتي تجعل السامع في كثير من الأحيان يسمع عن هذا الشيخ سردا من النصوص مختلفا عن النصوص التي يسمعها عن شيخ آخر، ومعنى هذا أن الخلاف لم يعد منحصرا في الاجتهاد والفتاوى، بل في النصوص أيضا.

يعاني الخطاب الديني المعاصر من عدة مكبلات تحول دون جعله خطابا منتجا للمعنى في قلب المسلم وعقله؛ ذلك أنه ورغم السطو العددي للدعاة والكتب الدعوية والفضاءات الدينية التقليدية والقنوات الفضائية الدينية والمواقع الإلكترونية ذات الاهتمام بالتوعية والإرشاد الدينيين...إلخ، فإن الغالب السائد في المشهد الديني اليوم إنتاج خطاب فقهي ديني يلقي بالمؤمن في غياب أفكار وفتاوى وحكايات سرعان ما يستبين تهافتها عند أول فحص عقلاني إيماني أو غير إيماني، مثلما يستبين تهافت ذاك الخطاب الحداثي الإقصائي النقيض الذي بدل أن ينظر في المعنى الديني لتحريره من اللاعقلانية؛ فإنه يهدر المعنى ويلقي بالمؤمن، بشكل ظاهر أو ضامر، في غياب العدم، ويرى المفكر الجزائري عبد الرزاق بالعقروز أننا لم نتعامل مع الحداثة في طورها الغربي بشكل ناضج بعد، فنحن فاقدون للرؤية والمنهج والإرادة، كما أننا لم نفهم الحضارة الإسلامية بعمق وشمول حتى نبحث في تراثنا المعنوي والأخلاقي الضخم ونفسره من جديد، ويعتبر أن النهضة تبدأ بإعداد قادة في الفكر من أجل إنجاز وظيفة الفهم المزدوج للحضارة الغربية وأسسها بعمق، وفهم الحضارة الإسلامية بعمق أيضا (الرزاق، 2012،ص121).

ويسعى عبد الرازق بالعقروز إلى رصد جوانب الاجتهاد في الخطاب الإسلامي المعاصر الساعية إلى بلورة رؤى فاعلة مستقلة عن سياق الحداثة، حيث تطرق في العديد من المرات إلى بيان حدود النظريات التواصلية الغربية التي تأثر بها الفكر العربي المعاصر، وشدد على

الحاجة إلى الأخذ بالرؤية التعارفية مستندا في الأساس إلى المبدأ القرآني لرؤية الإنسان للوجود من خلال التوحيد، فوحدانية الله هي أساس كل شيء، ومن ثم انفصال الذات الإلهية عن الإنسان والعالم المخلوق دون حلول ولا اتحاد، وتأتي بعد ذلك الرؤية التعارفية بناء على مفاهيم التكريم الإنساني، ووحدة الإنسانية (دون تمييز عرقي)، والاختلاف التكاملي وليس التفاضلي العنصري، حيث أنه لا يمكن الحديث عنى الخطاب الديني الفقهي دون شرح كيف هيمنت الاتجاهات الإرتيابية على الفلسفة الغربية فيما بعد الحداثة، والأزمة التي تتجاوز هذه الاتجاهات وتؤسس الرؤية على وحدة الحقيقة والقيمة والحياة، وتستمدها من وحدانية الله (الرزاق،2012،ص123) وثمة نقطة أخرى مهمة تمحورت في أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر ، وهو القطيعة الحاصلة بين النص والواقع ، وإنعكاس صورة أن الماضي أفضل من الحاضر ويجب العودة إلى الماضي ، وان الماضي ذهبيا ، والحضارة الإسلامية المنهدة كانت على أسس صحيحة ومقدسة ، وغيرها غير صحيح بل ومنحرف عن الإسلام وتوجيه جميع النصوص الدينية إلى ذلك الإتجاه ، وقرائتها وفق ذلك المفهوم (عبود، 2015،ص23) ، والمقصود بذلك عدم النظر إلى المستقبل وتصحيح منظومات القيم الأخلاقية الحاضرة وفق مفاهيم تتماشى ومتطلبات العصر الحاضر والمستقبل، ونتيجة لهذا يكون الخطاب الديني يهدف إلى عدائية مضمرة إلى الحاضر وقيمه، وإلى حركات التجديد ورؤاها .

2- القراءة الخطابية ومأزق الحداثة:

إن القراءة الخطابية الظاهرية المتشددة للنصوص الدينية التأسيسية، وهي قراءة تجثم على وجه أحادي لفهم الإسلام، وتعتبره فهما نهائيا ومغلقا ومطابقا لمراد الشرع، ومن ثم يعد من الواجب الالتزام به لأنه عين الالتزام بالدين، ،وهنا نجد أن الخطاب الديني المعاصر مازال، يستعيد أسئلة وإشكالات وأجوبة من سياقات علمية واجتماعية وتاريخية وسياسية لا صلة لها اليوم بالواقع، بالنسبة إلى تلك الأصوات؛ لا لتقصير ذاتي منها، بل لأن النظام المعرفي العام المهيمن والمسيطر على سياقها التاريخي والمعرفي والحضاري لم يكن يسعف على طرح مثل هذه القضايا.

قد يعترض معترض أن تلك الأصوات لم تكن تنطق بآرائها، بل بأحكام الله تعالى في الأسئلة والقضايا المطروحة، وهي أحكام لا يجري عليها التبديل أو التغيير؛ إذ يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه المقدس" **لا تبديلَ لكلمات الله** (يونس، الأية64) " **قال تعالى أيضا"وَ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا**" (الكهف، الأية27)؛ وقال سبحانه":**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** "(الأنعام، الأية115) هذا هو الاعتراض الذي ترفعه القراءة الخطابية، وفيه يكمن الداء العضال في تعاملها مع النصوص المنزلة، داء بين الفهم والنص، بين القراءة والمقروء، بين الإدراك البشري النسبي المتغير وبين الكلمة الإلهية المتعالية الخالدة؛ فبدل أن تدرك أن الاختلاف بشري كما اقتضت سنة الله تعالى في خلقه، بما في ذلك الاختلاف في الفهم، تصنف هذه القراءة كل مختلف في خانة الزيغ والضلال، وتنصب نفسها في مركز إصدار الحقيقة الإلهية؛ بينما ظل كثير من علمائنا القدامى يعتبرون ما يذهبون إليه مجرد اجتهاد يؤخذ منه ويرد، إيمانا منهم بتفرق الصحابة في الأمصار وتفاوت أهل الذكر في المدارك وتعرض البشر للزلل، المنحى نفسه ستعمقه المعارف الحديثة حين ستذهب أبعد من ذلك في التأكيد على أن الاختلاف في الفهم ضرورة لغوية ومعرفية وثقافية، لتعلمنا كيف ننظر إلى نتاج أولئك العلماء نظرة تاريخية تصل فكرهم بسياقهم التاريخي ومنهجهم المعرفي وبالمسبقات الحاكمة لفهمهم، والتي تؤثر في إدراكهم بوعي وبغير وعي، وهذا يعني أن بعض القدماء أدركوا بحسهم الأخلاقي وحدسهم المعرفي نسبية آرائهم؛ فيما أكدت ذلك العلوم الإنسانية الحديثة بالحجة والدليل العلميين، بل وذهبت إلى القول باستحالة إنتاج فهم مطابق، بشكل مطلق، لمعان ومقاصد تخص نصا يتموضع متلقيه في شروط مغايرة لشروط إنتاجه أو تلقيه أول مرة (الحراق، 2015،ص19).

3- أزمة الخطاب الديني الحداثي في الثقافة المعاصرة:

يعد الخطاب الديني الإسلامي بمثابة واجهة العرض للثقافة الإسلامية المعاصرة، لذا إستوجب منا توضيح ملامح هذه الثقافة، التي تمثل الجزء الأهم في بناء الحضارات أو

هدمها، وإنطلاقا من أساسيات و منطلقات الثقافة فإنها تتوزع على نوعين من حيث المنشأ هما :

- **الثقافة الوضعية** : وما تحويه من تفرعات مكانية أو زمانية، وما يداخلها من رؤى وأفكار، ومنطلقات هذه الثقافة المتعددة ، كالأهواء والنوازع والإنتماءات والمكتسبات، الفئات عرقية واللغوية والدينية سياسية وإجتماعية وإقتصادية ، والتداخل مع الأعراف والتقاليد والموروثات ، ووحدتي الزمان والمكان وغيرها.
- الثقافة الإلهية : وتتمثل بالثقافة الإسلامية بصورة خاصة، لتداخل الثقافة الوضعية وملابساتها بالثقافتين اليهودية والمسيحية لتقادم الزمن عليهما وعدم وجود نص ثابت فيهما، فالثقافة الإسلامية عموما لها جذور تاريخية متأصلة بالأمة مرتبطة بحاضرها وعقائدها ولا يمكن فصل الماضي عن الحاضر ، لكنها متطلعة بنفس الوقت إلى مستقبل الأمة أيضا ، باعتبارها منطلقة من نصوص مقدسة مرتبطة بها ، ومن أصول عقيدتها بقاء هذا الدين إلى نهاية الحياة على الأرض ومن هذا المنطلق أيضا يجب التدبر والتفكر وهما من أصول وأساسيات الثقافة الإسلامية في فهم موقف الثقافة الإسلامية من حركات التجديد لهذه المصطلحات وتلك المفاهيم، وأن النصوص التأسيسية للإسلام لا تشكل أصولا لممارسة العنف إزاء الآخر، بل ربما تشجع كتابات أولئك الذين تشبعوا بثقافات الغرب ونهلوا من علوم جامعاتهم للتقارب أو التلاقي، حتى وإن كانت هي في الأصل متقاربة، النزعة العنيفة بعض النصوص المفسرة للنص التأسيسي ، كآراء بعض الفقهاء والمفسرين ورجال علم الكلام، وفي ذلك مدعاة لإعادة النظر بموضوعية برهانية في تراثنا الفكري الذي نحدده بالنص التفسيري. (زاهد، د،ت،ص13-14)

ونؤمن أيضا أن التراث الإسلامي يمثل أساس الحضارة الإسلامية في الماضي والحاضر، ومنطلق تطورها ونهوضها في المستقبل، من حيث التعامل الهامشي لمعظم المثقفين الإسلاميين مع هذا التراث ظهرت نتائجه في خطابهم الذي يشكل جزءا أساسيا من الخطاب الإسلامي الحديث، وظهرت نتائجه أيضا في فكرهم ضمن الواقع الإسلامي المعاصر عموما مسببا في انحراف بعضهم فكرا وسلوكا، وبروز القلق العقيدي والفكري لدى الآخرين، أو

إلغاء الكثير منهم من وإذا كان قبل أصحاب الإختصاص (المؤمن، ،2000،ص98) ، لأن التخصص الدقيق أكثر معرفة من التخصص العام أو العلاقة الهامشية لتلك العلوم وأدق نتائجا منها ، لتماشى الجميع مع حركة التطور الثقافي الملحة في هذا العصر، وإلا يكون التطفل من غير المتخصصين أقرب للأمية الثقافية منه إلى الثقافة الحقيقية فيصبح الأعلى في الفكر والثقافة والدين والمجتمع، ونحن نؤمن بأن التراث العلمي الإسلامي يمثل أصالة الفكر الإسلامي ، وكل فكر بغير أصالة يكون فكرا أجوفا (الناصر، 1433 هـ – 2012،ص23) .

4- الحديث عن الخطاب الديني في ظل الأزمة الحداثية:

لن نحتاج إلى الكلام عن أزمة الحداثة مصفوفة من البراهين على هذه الحقيقة، بقدر ما نحتاج إلى أن نبصر فيها، أي الحداثة نموذجا من نماذج مراهنة الكائن الإنساني على قيم ومبادئ مفرطة في إنسانيتها، وثقة في عقل منفصل وإرادة ناهمة بالتملك، إن هذه الصراطات اللامستقيمة هي التي آلت بهذه الحداثة إلى تخريب الأرض وتضييع القيمة المعنوية في الإنسان، إن نجاحات الحداثة في مستوى التقنية وتنظيم دوائر وفضاءات المُمارسة الإنسانية على الأصعدة الاجتماعية والإنسانية، هو الذي زين في نفوس البشر الانجذاب نحوها ونحو مظاهرها، والتنكر في المقابل لرصيد القيم المعنوي والإرادة الحضارية الذاتية، بما هي الشروط المنطقية التي انبجست بنورها هذه المظاهر، بمعنى أن الإرادة وهمة الحركة هي التي أخرجت هذه المُنجزات المادية من أجل أن يتداولها العالم، ومشكلة الإنسان المُنجذب نحوها، هو نسيان هذا الأصل الحيوي الإرادي، وعدم الفصل بين وقائع الحداثة؛ وبين الأسباب التي أنتجت وتنتج هذه الوقائع، فتعلق قلبه بزينة ظاهر التقنية، ولم يكن هذا سوى مبلغه في المعرفة بحقيقتها وتوهمه بانحصار اللذائذ في تحصيلها وحبها (الناصر، 1433 هـ – 2012،ص25).

إن الذي أشكل على الإنسان في هذا الطور الحداثي الغربي؛ هو غروره بذاته وتأليه هذه الذات وخلع المواصفات الكبرى عليها، ولأنه لا يقدر على أن يبقى معلقا بهذا التصور الذاتي ، فقد زاد إلى قوة هذه الذات المُتوهمة قوى أخرى تتعاضد معها، من أجل أن يؤسس ضمانات

مطلقة يسوغ بها معنى حركته في العالم، فصنع آلهة أخرى من أجل أن يتعبدها، فكانت " ميتافيزيقا التاريخ " و " حتمية المجتمع " و" قوة الطبيعة" و" تقليد المادة"، إلا أن هذه الذات ومصنوعاتها رقيقة وواهنة؛ ولن تقوى على الصمود كثيرا، هذا الأمر أدى، بحكم التطابقات الوهمية التي أعتمدها الفقيه بين الأزمنة اللاحقة والزمن التأسيسي الأول، إلى إسقاط أحكام دينية على موضوعات لاحقة مستجدة تشبه موضوعاتها الأولى في المظهر أو العنوان وتختلف عنها في الطبيعة والحقيقة والوظيفة الإجتماعية والسياسية، ازدراء الفقه للتاريخ، لم يفرغ الأزمة من مضمونها فحسب وإنما جمد النصوص، وعطل الطاقات والتفاعل مع الأزمنة اللاحقة فتوقف الخطاب الديني، كما يقول أركون"عن ممارسة دورة كقوة منظمة أو مشكلة ترسخ وعيا في حالة الإنبثاق ضمن الأحداث المعيشة من قبل جماعة المؤمنين، وأصبح بالتدريج فضاءا ثابتا لإسقاط ومرجعا يرجع إليه من أجل تحديد المعايير الأخلاقية والسياسية والشعائرية التي ينبغي أن تتحكم منذ الآن بفكر كل مسلم وممارسته، راحت تسقط عليه في أزمان مختلفة زفي أن واحد كل أنواع التصورات والمفاهيم والأفكار والتحديدات ..." (أركون، 1996،ص73-82) ،ومن هنا يمكن القول أن أزمة الحداثة والمآلات المشدودة هي التي أوصلت الإنسانية لها، وقد ألزمت الخطاب الإسلامي المعاصر إلقاء السمع لهذه الأزمة، والتفكير في الارتقاء إلى مستوى الحدث الحضاري، من أجل فهم هذه المشكلة بعمق، أي فهم الحداثة الغربية بعمق والكشف عن الفقر المعنوي والأخلاقي الذي ينخر أساساتها الإبستمولوجية وجداولها القيمية، والإسهام من الوجهة التأسيسية في إعادة ترتيب سلم القيم الضائعة وبلورة نموذج إدراكي جديد للعالم، وذلك لا باعتباره مكانا للسلب والنهب، إنما هو كحرم ينجز فيه وظيفته الإستخلافية ويسكن فيه، ويبني فيه أنساق المعرفة، باعتبارها فنونا لتهذيب النفس ومعرفتها بعمق، من أجل معرفة الله من جديد واتخاذه مقياس لجميع الأشياء.

إن أحد أعراض الأزمة مع الحداثة في طورها الغربي خطابا ومشروعا حضاريا، أننا لم نمارس التربية بدلالتها الحضارية على مشروع الحداثة، بمعنى أننا فاقدون للرؤية والمنهج والإرادة بما هي الرهانات القوية من أجل خطاب فئة تفهم الحضارة الغربية بعمق من جهة،

ومن جهة أخرى تفهم الحضارة الفقهية الإسلامية بعمق وشمول أيضا ، لتستطيع أن تبحث في تراثنا المعنوي والأخلاقي والديني الضخم، وتعيد النظر فيه وتفسره من جديد، لكن الذي يؤسف له هو عدم وجود تخطيط منظم لذلك الخطاب الديني مثل هؤلاء الفقهاء، والذين كتب لهم أن يحوزوا على مثل هذه الأزمة وحدها هي التي ساعدت على إيجادهم ولم يكونوا حصيلة خطاب ديني منظم.

5- الاجتهاد في الخطاب الإسلامي المعاصر:

إن الإشكالية الكبرى التي تنخرط فيها أزمة الحداثة تأتي في سياق رصد جوانب الاجتهاد في الخطاب الإسلامي المعاصر الساعية إلى بلورة رؤى فاعلة والاستقلال بخصوصيات مفهومية على صعيد الحداثة ولواحقها في التعارف والعقلانية والكونية، بعد أن استبانت أزمة الحداثة في طورها الغربي، ولمّا أننا نشهد تحولات عالمية تبحث عن أنظمة وتدبيرات وجودية أخرى فما الذي يملكه الخطاب الإسلامي المعاصر من أجل الإسهام في هذه التحولات؟ هل يؤسس الخطاب الإسلامي المعاصر رؤاه الفكرية في مسائل الحداثة وأزمة الحقيقة والتعارف والعقلانية والكونية، يؤسسها منفصلا عن أي تماسك مع خطاب الحداثة ؟ أم أن الرؤية السليمة لا تأتي من هذه المنطلقات، بقدر ما تستفيد من هذه الإنجازات الإنسانية وتعيد موضعة سبلها المنهجية وتستوعبها في نسقها المعرفي ينفي عنها البعد المنفصل عن التسديد الإلهي ويعيد وصلها بمقاصد هذه الأنساق المبنية على الرؤية التوحيدية إلى الكون وتفعيل الإيمان في السلوك وإعمار الأرض بالخير؟.

ومن أجل الإجابة عن هذه التساؤلات، لابد لنا الكلام في أزمة نقد الحداثة في الخطاب الإسلامي المعاصر، وكيف انشطر هذا الخطاب في التعاطي معها قيما وتاريخا، وكيف أن الرؤية الحضارية تعد مسلكا آمنا للخروج من ضيق التجزيئية والتنافرية إلى رحابة وسعة التركيبية والتكاملية، التي اختصت ببيان حدود النظريات التواصلية التي تراهن عليها المناحي الفلسفية الغربية المعاصرة و الذين يتبعونها في الفكر الإسلامي المعاصر، وبيان الحاجة إلى فاعلية الأخذ بالرؤية التعارفية التي ترتكز على مفاهيم : التكريم الإنساني، ووحدة الإنسانية،

والاختلاف التكاملي، ومن أجل هذا، فإن عنصر القوة في مرتكزات الرؤية المستقبلية، هو إعداد قادة في الفكر من أجل إنجاز هذه الوظيفة أي وظيفة الفهم المزدوج للحضارة الغربية وأسسها بعمق، وفهم الحضارة الإسلامية بعمق وشمول أيضا، وذلك لصناعة نماذج فكرية تمتلك عدة نظرية قوية وفهم متكامل؛ من أجل بلورة رؤى تفهم بها الأمة معنى رسالتها في العالم وتعيد لها الثقة بمعقوليتها ومناهجها في السلوك والفكر، إن إعداد قادة في الفكر بالمواصفات التي أوردنا رهان قوي من رهانات الإصلاح وممارسة التحديث بخصوصية حضارية وقوة إرادة ومستوى فكري راق أصيل ومطرد وفعال، وإن تولينا النظر والتحليل في أزمة الحقيقة والقيمة التي تنخر الخطاب الديني المعاصر، وكيف هيمنت الاتجاهات الإرتيابية التي تبتغي أن تكون لها الكلمة العليا في العالم، حيث تتأسس الرؤية على وحدة الحقيقة والقيمة و الحياة، باعتبارها تستمد هذه الوحدة من وحدانية الله سبحانه وتعالى.

يستدعي الخطاب الديني سؤال الإجتهاد في مبانيه ومفترضاته وراهن نشاطه ومؤسساته فالإجتهاد صلب أي تفكير ديني، ووراء أي حكم أو تشريع ومستند أي صلاحية إفتاء أو نطق باسم الدين، وإن البناءات المعرفية والمنهجية ما كانت تحصل لولا تحولات جوهرية حصلت علاقة المسلمين بنصوصهم الدينية ووضعية تلقيهم لها، فرضت عليهم السعي لاستيعاب هذا التحول والإستجابة لتحدياته في فهم هذا الخطاب وتوفير برهانه (ندوة، بتاريخ 29/28 نوفمبر 2016).

6- الخطاب الديني والحداثة: أزمة فهم أم أزمة علاقة؟

ظنت الحداثة قادرة على إعدام البعد الديني بنسيانه والتركيز على البعدين المادي والتاريخي الملموس والمحسوس في حياة الإنسان، خاب ظنها، وبدا أنه مجرد "وهم" تبدد بفعل ما عرفه النصف الثاني من القرن الماضي وبداية القرن الحالي من عودة قوية لـ "الديني"، على اختلاف في مضمونه بين عودة "سؤال المعنى" عقب الجفاف الروحي الذي وقعت فيه الحداثة في الغرب، ولا سيما عند تفريطها في البعد الأخلاقي مقابل تطويرها للمستويات العلمية والتقنية والتكنولوجية والاقتصادية من حياة الإنسان؛ وبين مضمون عودة "الديني" في

الضفة الإسلامية، وما يعنيه من عودة لطقوس التدين واحتلال الدين لمواقع متقدمة في الحياة السياسية والفضاء العام بوجه عام، وهي عودة يستأسد فيها "التسييس" و"التطقيس" على "الروحنة" و"العقلنة"؛ أي ما يسمى بـ "الإسلام السياسي"، والذي يسخر كل الموروث الديني في قراءة سياسية للواقع ورهاناته، وذلك في نسيان، يكاد يكون تاما، للعنفوان الروحي الذي يميز الدين في وظيفته الإيمانية المتعالية، وهذا ما أوقع التدين "العائد" بيننا في "تطقيس" تحولت معه مختلف مظاهر التنسك والتعبد من دلالاتها الروحية الكونية المتعالية إلى أشكال ورسوم تؤشر على تقليدانية تدينية أو على انتماء إلى مشروع سياسي معين يرفع عنوان الدين مرجعية وأفقا، الأمر الذي جعل عودة "الديني" في الضفة "الإسلامية "مقرونة بعقم في إنتاج المعنى، سواء في مستوى الأفق الروحي المتعالي أو في مستوى معقولية الفهم التاريخي.

إن ما نسجله، هنا هو أن إهمال الحداثة للبعد الفقهي الديني، مع كونه حاجة ضرورية ضمن الحاجات الأنثروبولوجية للإنسان، جعلت هذه البعد ينفجر من جديد في وجهها بأشكال متباينة في الضفتين الغربية والإسلامية؛ لأن هذا البعد لا بديل عنه، ولا يمكن لغيره أن يضطلع بوظائفه المعنوية والروحية والنفسية، من هنا تهافت كل دعوى إلى إقصاء البعد الديني وتهميشه في أي مسار تحديثي، في حين ثمة مسار آخر تلجأ إليه كثير من المقاربات التاريخية الحداثية، وهو رفع شعار "تحرير الدين" بدل "التحرر من الدين"، حيث تعلن أنها لا تتنكر للإيمان، وإنما تسعى إلى مقاربته مقاربة تاريخية تفكيكية لا وضعانية، وذلك لتحريره من أشكاله التاريخية القروسطية، وعليه، فهي لا تروم إقصاء البعد الديني والإيماني من التقصي والبحث والدراسة، لكنها تعمد إلى تفكيك المرجعيات المعتبرة دينية لإثبات تاريخيتها، والاقتراب التاريخي من كثير من "المتعاليات" لإثبات بشريتها، هذه كانت حصيلة عمل مؤسسات وضعت لها مناهج ورؤى ، ورسمت لها أهداف ، ولا يمكن الوقوف بوجهها إلا بعمل مؤسساتي أكبر وبمناهج علمية أدق ، ولا تكون هذه المؤسسات هي الأخرى لا تمتلك معالم الخطاب الإسلامي وتفتقد مقوماته أو تعي المفاهيم الإسلامية ومتطلباتها المرحلية (رامزفيلد، 2003،ص25)، يسعى هذا لتقصي مظاهر الخطاب الديني المتأزم كما تتمثله

بعض النخب بأصنافها الفكرية والسياسية والأكاديمية والتي توظف لغة تتكشف عن افتقار معرفي لأصول المعتقد ومقاصده التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم من أجل الحفاظ عليها : الدين، النفس، العقل، العرض، المال ليس هذا وحسب، بل إن الخطاب يفتقر لخلفيات الفكر المعاصر المدافع ، وهذا ما يجعله أجوفا خاليا من فقه الدين و الواقع، بعيدا كل البعد عن الممارسة القصدية لكل متتبع للغة الخطاب الديني المعاصر.

ومن هنا يمكن القول أن الخطاب الديني والحداثة أزمة قيم باعتبار معاناة الخطاب الديني المعاصر من عدة مكبلات تحول دون جعله خطابا منتجا للمعنى في قلب المسلم وعقله؛ ذلك أنه ورغم السطو العددي للدعاة والكتب الدعوية والفضاءات الدينية التقليدية والقنوات الفضائية الدينية والمواقع الإلكترونية ذات الاهتمام بالتوعية والإرشاد الدينيين...إلخ، فإن الغالب السائد في المشهد الديني اليوم إنتاج خطاب ديني متكرر يلقي بالمؤمن في غياب أفكار وفتاوى وحكايات سرعان ما يستبين تهافتها عند أول فحص عقلاني إيماني أو غير إيماني، مثلما يستبين تهافت ذاك الخطاب الحداثي الإقصائي النقيض الذي بدل أن ينظر في المعنى الديني لتحريره من المكرورية واللاعقلانية، فإنه يهدر المعنى ويلقي بالمؤمن، بشكل ظاهر في غياب العدم.

7- الحداثة وإصلاح أزمة الخطاب الديني:

إن ممكنات الخروج من نفق الطور الحداثي المُظلم، وإصلاح أزمة الخطاب لن تكون ممكنة دون إعادة تفعيل التوجيه الديني وقيم الإيمان في بناء الإنسان وملء العالم بالمعنى من جديد، لأنه لا فتوحات ممكنة تلوح سوى :

- أن يستفتح الإنسان من جديد، من أجل أن يفتح له أو يأتيه الفتح من الله، ويعيد ترتيب الصلة معه، لأن الذات دون إيمان ودون معنويات تنتج أنماط الحياة التي لا تطاق (بوقدير، 2018)، والمعنى هنا هو إنطلاق مفاهيم الإصلاح في تفسير النصوص التأسيسية هذه من عصرنة التفسير لا من الخضوع التام لتلك التفسيرات، وهذا لا يعد خروجا على

الحداثة، كما يحلو للبعض أن رآها، لأن الخطاب التأسيسي شيء والآراء حول تفسيرها شيء آخر، ولعل خير مثال على ذلك موقف الإسلام من الديمقراطية (الجبار، د ت،ص175) التي تمثل إحدى أزمات الإنسان المعاصر، وتحديات الحاضر للفكر الإسلامي فقد صور البعض أن الإسلام والديمقراطية خياران متعارضان، وهذه تعني خلق هوة كبيرة بين السلطات السياسية (الدولة ، الأمة، الشعب) وما يرافق ذلك من نازع وتخاصم يؤدي بالنهاية إلى التخلف الحضاري والتناحر المسلح والقمع ، ويستغل المستبدين والديكتاتورين ذلك النزاع لصالح دعواتهم، ويكون الخاسر الأكبر هي الأمة ،فبعض من يؤمن بالديمقراطية يرى أن الإسلام هو السبب الأساس في عدم تطبيقها على الواقع، أو هو الحاجز الأول الذي يحول دون تطبيقها، بينما يرى إسلاميون أن الديمقراطية مشروع سياسي غربي يخالف الإسلام ويناقضه ، وتطبيقها يعد تغريبا للثقافة الإسلامية .

- أن ينته عن الأرض وتخريبه للعالم، وذلك خير له من استمراره في هذا التخريب والتدمير أي؛ تدمير المعنى والعالم المحسوس، أن يعود إلى الاستمساك ببقايا المشروع الحداثي الغربي، من أجل بث الحيوية فيه، وهذا لن يثمر إلا عودة المآزق وفقدان الأمن الأنطولوجي ونسبة المعرفة واختزالها في المصلحة، واختلال التوازن القيمي، أي أن عودته إلى الانتهال من قيم المشروع الحداثي في طوره الغربي؛ ستقابل بعودة جديدة لتلك الدروب المسدودة التي بمقتضياتها وصلت الإنسانية إلى هذا العمى الوجودي والعبث السلوكي والتخريب للأرض، فقد أحيط الخطاب الفقهي الإسلامي بظروف من الرعب والتحفظ والتسرب عبر قنوات سرية، أو الإعلان عن نفسه من خلال فكر مسموح به، الأمر الذي اضطره إلى فقدان التركيز والوضوح، ولذلك أصيبت بعض مفاصله بالتشويه الذاتي نتيجة لهذه الظروف والتشويه الخارجي بوصفها وسيلة للعلاقة الدين والأرض (زاهد، د،ت،ص26)، تأثر ولو بنسب متفاوتة بالحدث التاريخي بالإستعماري، وما أعقبه من تمظهرات للخطاب والفكر الغربي في المصادر الإسلامية ، الأمر الذي أحدث إرباكا ورجة في بنية الفكر الفقهي الإسلامي وفلسفته التقليدية، وخلق أمامه جملة من التحديات الفلسفية، والعلمية، والأخلاقية (الناصر، 1433 هـ – 2012،ص101).

وهنا يعد الإشكالية الكبرى في الفكر الإسلامي المعاصر، تعدد نوعية الخطاب والمتعارض أحيانا، فبعضه يعارض أنظمة الفكر الغربي ويصفه بالكفر حتى في إستعمال مفاهيمه ومصطلحاته ، وبعضه الآخر ينبهر بوسائل وأنظمة وتقنيات الغرب ويحاول اللحاق بحضارتهم حتى وإن خالفت أصول دينه ، والأخير يتجه نحو السلبية والخوف والتردد (طه، 2010،ص09) وإذا اقتنعنا بأن هناك ثمة حاجة إلى إعادة التفكير بتقبل التعددية الدينية أو المذهبية، أو ثمة حاجة إلى العيش بسلام وأمان يجب قبل كل شيء.

8. خاتمة:

أخذ مضمون الخطاب الإسلامي في بدايته، يترجم مضمونا سياسيا بلغة عقائدية مكثفة وصياغة إيديولوجية منفعلة، بيد أن الضغط الأمني والعزلة السياسية التي عاناها هذا الإتجاه فرض عليه التبصر بواقعية الأمور، والنظر إلى الواقع في مشاكله وأزماته والعمل على حلها، لا الإيماء عليه بما يجب عليه فعله، أي الإنخراط في حل أزمات المجتمع لا الإسهام في تراكمها، وهو تحول تزامن مع بروز نخبة جديدة من الكتاب والمنظرين الإسلاميين، أخذوا يمهدون لهذا التحول، ويضعون أسسا تأويلية جديدة ستعيد منطق الجيل الأول من الإصلاحيين في الدعوة إلى إستعاب المكسب الحضاري القائم أو الوافد بإرجاعه إلى أصول إسلامية له.

وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها مساعدة معالم الحداثة إلى توسع مجالات الاتصالات السريعة والمتعددة، مفتوحة الآفاق والأوقات، وبعيدة كل البعد عن عيون الرقابة، الذي يؤدي إلى تقارب الأفكار وتلاقح الرؤى، أو الاطلاع على ما يدور في المجتمعات الإسلامية أو في أفكار الأمة، كل هذا جعل العالم الإسلامي يشهد تحولات فكرية كبيرة من أجل صحوة كبيرة للشعوب الإسلامية، ساعد هذا الاتجاه الخطاب الديني بتعدد أدواته الذي الدعوة إلى السيطرة على زمام السلطات السياسية الذي اعتبرته بعض اتجاهات الخطاب الديني حتميا ليتحول إلى واقع معاش دون التثبت من صلاحية طرق التطبيق للواقع أو تقبلها من قبل الأمة، ولعل من أخطر الأزمات على الثقافة الإسلامية هو ذلك التقاطع

الذي أوجده البعض قسرا دون وعي أو تدبر ، بين المفاهيم أو المصطلحات دون وضع قاموس مشترك بينها ، للتقارب أو التلاقي ، حتى وإن كانت هي في الأصل متقاربة .

وفي الأخير خلصت الدراسة إلى مجموعة من التوصيات من أهمها أنه إذا شئنا لثقافتنا النهوض والدوام يجب أن نعترف ونؤمن بأن هناك ثقافات أخرى وهذا ما يدعونا إلى التحاور مع هذه الثقافات ، وبطريقة ثقافية هي الأخرى ، وإلا فإن ثقافتنا ستعاني من الأزمة، التي تؤدي إلى التراجع أو التوقف عن حركة التطور، وسينعكس هذا على إيماننا بأن الدين الإسلامي فكر معرفي، دائم إلى نهاية التاريخ.

9-قائمة المصادر

- بالعقروز عبد الرزاق، (2012) *ازمة الحداثة ورهانات الخطاب الاسلامي*. دار المعارف..
- *أحمد طه(2010)، تردي الفكر الإسلامي المعاصر بين الأصولية المستبدة والعلمانية المستفزة*، القاهرة، مكتبة مدبولي.
- *محمد عبد الجبار، الإسلام والديمقراطية في معركة البناء الحضاري وما بعدها*،معهد الدراسات العربية والإسلامية،لندن.
- رامزفيلد. (2003). المدارس الدينية في العالم الإسلامي. *عن جريدة الحياة* (العدد10).
- عبد الأمير كاظم زاهد. *قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر*. النجف الأشرف: دار الضياء.
- عبد السلام بوقدير. (2018). *خيارات الإسلاميين لتجاوز أزمة الحداثة*. دار السبيل.
- علي المؤمن. (2000). *الإسلام والتجديد رؤى في الفكر الإسلامي المعاصر*. بيروت، لبنان: دار الروضة.

- غالب الناصر. (1433 هـ - 2012). *مباني الدين التجريبي والتعددية الدينية في فلسفة عبد الكريم سروش*. النجف الأشرف: إصدارات مركز الفكر الإسلامي المعاصر.
- *عبد الأمير كاظم زاهد، قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر* د، ت، النجف الأشرف، دار الضياء.
- محمد أركون، (1996). *الفكر الاسلامي، قراءة علمية*. بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- محمد التهامي الحراق. (2015). الخطاب الديني المعاصر وضرورة التحرير المزدوج. *مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث*.
- محمود شاكر عبود. (2015). فوضوية الخطاب الديني المعاصر. *مجلة مركز دراسات الكوفة* ،العدد38، ص23.
- ندوة. (بتاريخ 29/28 نوفمبر2016). في اصلاح المجال الديني. *مجلة المستقبل العربي* .العدد456.